



حوار وتحليل

فلسفة التاريخ

## السلالات البشرية وتكون التاريخ

تفسير التاريخ اثربولوجياً

انا طول : كان في امكانك ان تقول ، يا مسيو بكل ، ان العوامل القاطمة هي اقتصادية ، او عقلية ، او اثربولوجية . فقد كان الباحثون في عصري يعزون نهوض الامم وسقوطها الى « السلالة » . وبذلك تمكن الاساتذة من ان يكونوا علماء ووطنيين معاً ، يستثنى منهم الكونت « غوينو » ، فلم يكن استاذاً ولا وطنياً

غوينو : لما كنت في سن العاشرة نشرت كتاب « تفاوت السلالات البشرية » . فأبنت فيه ان كل ما في الانسانية من فن وعلم وتمدُن وكل ما هو عظيم نبيل ومثمر على الارض ، مصدره واحد ، وهو السلالة « التوتونية » . والراجح ان هذا الفرع العظيم من الفصيلة البشرية يختلف في اصله عن الجنسين الاصفر والاسود ، قتألت ارومة خاصة من الناس سيطرت فروعها على كل المناطق المتمدينة . فبالسلالة تستطيع ان تفسر التاريخ . والزطامة كما قال نيتشه بذيت على الدم وليس على العقل

نيتشه : اني احترمك كثيراً يا مسيو غوينو . ولكني لا اقبل ان يكون لي نصيب في هذه الخدعة . فقد رأيت دماً نقياً في كل سلالة . وقد يكون دم الملاحين البنادقة اتقى من دم الخاصة البرلنيين

انا طول : يا عزيزي الكونت لم يستأ الالمان من نظريتك ولا الانكليز . فقد قبلها الاستاذ « فريمن » بسرعة غير محمودة واعتنقها الاستاذ « تريشكي » بسرور . وسلم الدكتور « برنهاردي » ان الالمان اعظم شعب متحدين عرفه التاريخ . وكتب المسيو « تشمبرلن » الذي هجر انكلترا الى المانيا كناًباً اسما « اركان القرن التاسع عشر » ، برهن فيه على ان التاريخ الحقيقي بدأ لما قبضت اليد الالمانية على ميراث القدم . فما هو مقام خالق ذلك الميراث في التاريخ ؟ وكان يوقن ان ظهور العبقرية في رجل دليل على انه توتوني ، فوجه « دانتي » عنده الماني صميم . ولم يقل ان يسوع المسيح كان المانياً ولكنه قال ان من يزعم ان يسوع يهودي فهو اما جاهل او خادع . وقد اعرب « رتشرد ففنز » عن هذه المسألة

بالموسيقى . وبعد ان طانى الفاقة نصف قرن اكتشف انه اذا سلم بتفسير التاريخ تفسيراً  
توتونياً ، امكنه اقناع مواطنيه بأن يفوا ديونه !  
نيتشه : انى احب هذا الرجل كثيراً . ولكنك اصبت في انه دجال  
انا طول : كل عبقرى دجال ، لانه بدون قليل من التدجيل يموت . ولا سيما في  
البلدان الديموقراطية !

وليم جيمس : كانت روح العصر مؤيدةً لنظرية تفسير التاريخ بنوع السلالة في عهدنا . وكان  
« غلتن » يعزو العبقرية الى الوراثة . وكانت اليوجينية في مطلع حملتها لخلق اطفال  
ارستقراطيين . وكان مكس ملر يثبت بأصول اللغة ان جنساً آرياً جاء من الهند وساد  
اوربا . وكان « ويزمن » يبرهن على ان الجرثومة التي تنقل الصفات الوراثية وطء احكم سده  
ولا يتأثر بالمحيط . فكان البيولوجيون يعولون على الوراثة ، والمؤرخون على السلالة  
انا طول : قد تعلمون يا سادى ان « ماديسن غرنت » الذي جاء حديثاً من نيويورك  
هو ثقة في هذا البحث . وقد عثرت في شيخوختي على نسخة من كتابه « افول السلالة  
العظيمة » فظننته يعنى بها الفرنسيين . فلما تبينت انه يعنى به الالمان والانكليز رأيت ان  
مطالعة الكتاب غير ضرورية لتبين خطأ مؤلفه  
ثولتير : أطلعنا على آرائك يا مسيو غرنت . ولا تهكم مخالفة انا طول فرانس . فقد  
يكون الفرنسيون مخطئين وكل الناس مصيبين

غرنت : تختلف نظريتي عن نظرية « شمبلن » ، او نظرية « غوينو » . فاني لا اسلم  
بأن السلالة التوتونية مزيج من شتى الاصول التي لم تندمج بعد . وقد حصرت بحثي في الفرع الشمالي  
المتجلى اليوم بالالمان المتسلسلين من اصل بلطيقى ، والانكليز والاميركيين الذين من  
اصل سكسوني . على ان هذه الشعوب محدثة وأما السلالة القديمة . ظهرت اولاً في « الساسيين »<sup>(١)</sup>  
الذين حملوا اللغة السنسكريتية الى الهند . وهم غزاة يرض دخلوها من الشمال ، وابتدعوا  
نظام الطبقات ، منعاً لتبادل الزواج وفساد جنسهم به . وكلية طبقة ( caste ) تعنى اللون  
في لغتهم ، ووظيفتها بيولوجية ، لا اقتصادية ، وغرضها وقاية الدم لا احتكار الفرص . ثم  
مجد الشماليين في السمرين<sup>(٢)</sup> الذين تدفقوا من آسيا الى بلاد فارس . وفي الاخائيين<sup>(٣)</sup>  
والفريجين<sup>(٤)</sup> والدورين<sup>(٥)</sup> الذين ظفروا بالاناضول واليونان . وفي الامبريين<sup>(٦)</sup>  
والاوسكان<sup>(٧)</sup> الذين اكتسحوا ايطاليا . وأين ذهبوا فهم غازون مغامرون مكتشفون

(١) Sacae (٢) Cimmerians (٣) Achaeans (٤) Phrygians  
(٥) Dorians (٦) Umbrians (٧) Oscans

وحكام ، يقطنون الشواطئ . وهم على تمام التباين مع السلالات الاوربية ، كالاليين الودعاء ، او شعوب البحر المتوسط المندفين المتقلين . وانك لتجد هذا التباين على اعمه في ايطاليا . فجنوبها مأهول بذراري العبدان الذين جلبهم الرومانيون من الجنوب والشرق للعمل في حقولهم في عهد الامبراطورية . اما الشمال فيقطنه ذراري غزاة الالمان منذ عهد شارلمان وقيصر . وهؤلاء هم مبدعو عصر النهضة في فلورنسا ، وحاملوه الى روما . فدانتى ورفائيل وتشن وميخائيل انجلو وليوناردو <sup>(٨)</sup> ، كلهم من السلالة الشمالية . وقد تزوج اليونان والاخاثيون النورديون (اي الشماليون) فنسلوا الشعب الاثيني المتفوق في عهد بركليس <sup>(٩)</sup>

اناطول : أَلَمْ يكن ذلك التزاوج خطأً من الاخاثيين

قولير : لا يهيك ذلك يا مسيو غرنت ، فاستأف خطابك

غرنت : وكان تزاوج الدوريين مع الاغراب قليلاً ، فنسلوا الاسبرطيين البُسُل ، وهم سلالة نوردية حكمت على عبادان البحر المتوسط . فطبقات اليونان العليا كانت شقراء والسفلى كانت سمراء انه ليتعذر علينا ان نتصور مثلاً يونانياً يجعل الزهرة سمراء اللون والملائكة في الكنائس النصرانية شقراً . مع ان اهالي الجنوب سمراء غامقون . وفي اكثر الرسوم المنسوجة ترى الفرسان شقراً ، يمسك لهم الزمام عبيد سود . ولا يتردد فنان واحد في تصوير لصين اسمرين ، والمسيح بينهما اشقر . وهذا ليس مجرد تواضع بين المصورين والمثاليين ، لان اساطيرنا تشير الى ان المسيح من اصل شمالي وقد يكون في اوصافه الجسدية والعقلية يونانياً اناطول : ومن النكال ان تكون عظيماً قموت جوعاً ، وبعد موتك يصورونك بكل لون الا لونك الحقيقي . ولكن كعدو دع الشماليين يأخذون المسيح مادام اليهود قد نبذوه غرانت : سقط اليونانيون امام المسكدونيين ، لا محطاط نسلهم بالمزاجية . اما المكدونيون فقد احتفظوا بنقاوة سلالتهم وقهروا الفرص الذين اضعفهم التزاوج بالسلائل الاسيوية . ولم تر الشماليين فازين بعدها الى عهد الغزوة الكبرى ( على اوروبا ) فطرقوا الى البلطيق ، واحتلوا اسكنديناويا وانتشروا منها في شتى الانحاء وهم غوث <sup>(١٠)</sup> واوسترغوث <sup>(١١)</sup> وفزغوث <sup>(١٢)</sup> وسميريون <sup>(١٣)</sup> وانجلز <sup>(١٤)</sup> وسكسون <sup>(١٥)</sup> وفريزيون <sup>(١٦)</sup> وغال <sup>(١٧)</sup> وافرنج <sup>(١٨)</sup> وتوتون <sup>(١٩)</sup> وفتدال <sup>(٢٠)</sup> وسواقيون <sup>(٢١)</sup> ونورمنديون <sup>(٢٢)</sup> . ويندر وجود بقعة في اوروبا لم

(٨) اشهر رجال الفن في عصر الاحياء او النهضة Renaissance (٩) حاكم اثينا في عهد ازدهار الفنون والعلوم والفلسفة فيها في نهاية القرن الخامس ق م (١٠) Goths (١١) Astrogths (١٢) Visigoth (١٣) Cimbrians (١٤) Angles (١٥) Saxons (١٦) Frisians (١٧) Gaul (١٨) Franks (١٩) Teuton (٢٠) Vaudals (٢١) Suevi (٢٢) Normans

يكتسحها هؤلاء السفاكون ويمتلكوها . بدأوا بقهر روما ، وكان منهم دوقات في عصر الاحياء واكتسحوا بلاد النال مراراً . فقبائل الفرنك من اصل نوردي وهم اعطوا فرنسا اسمها الجرمانى . وكان شارلمان امبراطوراً جرمانياً ، عاصته اكن ، وكانت الجرمانية لغة بلاطه . وظلت اوربا عانية لحكم الشماليين الى حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ — ١٦٤٨) . وكان نظام الفروسية ، ونظام الاقطاع ، وفوارق الطبقات ، والفخر القومي والشرف الشخصي والعائلي ، والمبارزة ، كل هذه من اوضاع الشماليين . هذه هي السلالة التي خرج منها النورمنديون لاكتساح فرنسا و صقلية وانكلترا . وهي التي اخرجت الفرنجانيين<sup>(٢٣)</sup> الذين اخضعوا روسيا وسادوها الى سنة ١٩١٧ . هي استعمرت اميركا واورستاليا ونيوزيلاند وغيرها . وهي هي فاتحة الصين للتجارة الاوربية . هؤلاء هم الاقوام الذين تسلقوا قم الاب وضربوا في مفاوز الجليد الى القطبين . فانا آسف لان سيادة هذه السلالة قد دنا وقت افولها . فقدت مكانتها في فرنسا سنة ١٧٨٩ . فقد كانت الثورة الفرنسية قيام سكانها الاصليين على التوتون ، الذين كانوا قد قهروهم تحت اعلام كلوفيس وشارلمان ، واستمر حكمهم الاقطاعي بفرنسا الفسنة . ان اتجار النورديين الحربي كان في الحملات الصليبية ، وفي حرب الثلاثين ، وحروب نابليون ، والحرب العالمية الكبرى . فالحروب المذكورة قد اضعفت هذه السلالة في الدنيا . ويزداد تضاؤلها في انكلترا والمانيا بنقص المواليد . فقد سقطوا في روسيا امام البرابرة يقودهم مغولي ويهودي وسقطوا في اميركا بالمهاجرة الدافقة من جنوبي اوربا ، وكثرة توالد مزاحمهم والحكم الفاصل في الديموقراطية للعدد الاكبر واستهواء الجماهير

اناطول : عبارة بديمة يا مسيو ، عبارة بديمة

غرنت : والنتيجة انحطاط الثقافة ، وفساد الذوق ، في انكلترا واميركا . فاشكال الرقص والاغاني والالعاب وطوائف السياسيين المرتكبين ، تخرج من ثفالة الشعب الآن . وكنت قد فكرت قبل بضع سنين بانه يمكن انقاذ الجنس العظيم باميركا بواسطة سن قوانين صارمة ضد المهاجرة ، وحظر التزاوج بين النورديين وبين غيرهم من العناصر . اما الآن فقد فات الوقت وسيكسّل التفاوت في المواليد الفساد الذي بدأتها المهاجرة . وسيفقد الشماليون القوة والحول نحو سنة ٢٠٠٠ م في كل صوب . فيزول معهم التمدن الاوربي والاميركي وتسود همجية جديدة تطلع من طبقات الامة السفلى

اناطول : مشهد مريع . على ان الفرنسيين والاليبيين والايطاليين والتمسيين والروس سيقون . فلتتزع بان الروس والايطاليين لن يسمحوا للديموقراطية ان تخرب بلادهم .

فما افظع فعلة اولئك الشماليين — الانكليز — بابتداع حكم الاكثرية . ولكن قل لي يا مسيو :  
 أحقيقة انك تحسب الشعوب الشمالية شعوباً عظيمة ؟ لقد كانوا قناكين وقرصاناً وعشارين  
 وسلايين . أفهذا هو التمدن ؟ غرنت : قد انشأوا دول شمالي اوربا ، فجملوا التمدن بمكناً  
 نيتشه : اذا كانوا قد شيّدوا تلك الدول فالقضية ضدّهم قوية . فقد كان خيراً للعرمان  
 لو لم توجد تلك الدول . ولكن الباباوات ، اذ ذاك ، يحكمون اوربا المتحدة ، فتعمل الكنيسة  
 في ظل سلامها المكفول ، ما فعله « الاحياء » ، فتتضج ايطاليا للسياسة والفن ، ولكانت  
 الطبقة المثقفة حرة اليوم كما هي في باريس وڤينا ، واما سائر طبقات الشعب فكانت تكتفي  
 بالتعزية الكهنوتية غرنت : انت وثنى يا رجل

نيتشه : كيف لا اكون وثنياً وقد درست اللغة اليونانية

انا طول : قد عقدنا جمعية . واقترعنا — كما يقترح الاميريكيين على تعليم البيولوجيا —  
 لئرى من هم اعظم الانسانية . واظن اني اذكر الفائزين بالانتخاب . وهم :  
 الاول شكسبير . لم يجرؤ احد ان يغفل اسمه . الثاني بهوثن . الثالث ميخائيل انجلو .  
 الرابع يسوع المسيح ، وهو شاب محبوب حقيقة متى عرفته . الخامس افلاطون ممثل الفلاسفة .  
 السادس ليوناردو دي فنشي ممثل الفنين . السابع : . . لم ادعهم يغفلوا قولتير : واصرّ  
 نيتشه على ادراج اسم نابليون فكان الثامن . والتاسع قيصر بناءً على اصرار « براندس »<sup>(٢٤)</sup>  
 وكنت قد اخترت « رابليه » عاشراً . ولكن الناخين استبدلوه « بدارون » فكيف ترى  
 هذه اللائحة يا مسيو غرنت غرنت : لا بأس بها

انا طول : لا تجب قبلها تأمل فيها من حيث رأيك في خلق الحضارة على ايدي الشماليين . فان لك فيها  
 ثلاثة فقط . والباقيون يونانيون ويهود ولاينيون ، دلالة على ان الشماليين لم يشتهروا بالفن والادب  
 والفلسفة والديانة — موضوعات القلب والعقل — اشتهارهم بالعلم والذبح والنهب وفرض الضرائب  
 غرنت : وقد تكون مصيباً . فشعب البحر المتوسط ، مع انه اضعف من الشماليين والاليين  
 باعتبار القوة الجسدية ، هو اقوى منها عقلياً ، وشهرته الفنية غنية عن الاثبات . فقد دخل  
 الفن الى اوربا من الجنوب ، لا من الشمال . فان مدن مصر المريق في القدم ، وامبراطورية  
 كريت الباهرة ، وامبراطورية ايتروريا ، سلف رومية ومرشدتها الشديدة الحول ، ودويلات  
 اليونان ومستعمراتها في البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود ، وعظمة فينيقية البحرية  
 والتجارية وامبراطورية قرطجنة الشهيرة ، كل هذه ، نتاج سلائل البحر المتوسط ، والها  
 مرجع الفضل في عمدين اوربا الفلسفي المدرسي

اناطول : ان تسامحك غاية في الكرم . فلا اشد عليك في امر تفوق الاثنين في كل ناحية من مناحي الحياة سوى الحرب، وهم نتاج التزاوج بين الشماليين وشعب البحر المتوسط ، على الاسبرطيين الذين قلت انهم شماليون صميمون . واسألك فقط عن الاسكندنافيين الذين اعطونا «ابسن»<sup>(٢٥)</sup> الخفيف وجوائز نوبل، رغم لطفهم العظيم ( لانهم منحوه جائزة نوبل في الآداب والكلام سخرية ) . فقابل بين آثارهم في الفن والآداب والعلم والفلسفة ، وبين آثار الطليان في عهد الاحياء ، الذين اذا وثقنا بما قلته كانوا نتاج زواج مختلط . افلا نقول ان التزاوج بين الشماليين وغيرهم يسفر عن نتائج صالحة ؟ غرنت : احياناً ينتشه : وما هي السلالة غرنت : هي واضحة ككل شيء بدسي وتعرفها التقريبي هو : « طائفة من الناس ، من اصل متشابه ، تتصف اكثريتها الساحقة بوحدة اللون ، والجلد ، ونسيج الشعر ، وشكل الرأس وبناء الجسم اناطول : اخبرني مسيو « هيلير بولوك »<sup>(٢٦)</sup> لما كنت في انكلترا عن السان شمالي المحتد ، ولكنه الي الشعر والرأس واللون والقامة . وذكر امرأة اكّد ان لها خمسة اولاد ، اثنان منهم ينتميان الى شعوب البحر المتوسط ، وواحد الي الشكل ، وواحد شمالي ، وواحد اوصافه مزيج من اوصاف الاجناس الثلاثة

غرنت : اني اسلم بان لا جنس تامّ النقاوة . بل قد مازج كل دم اصول جمّة . ولكن ارستقراطي الانكليز اتق دماً من الاميركي المتسلسل اليوم من اجناس شتى في الولايات المتحدة بكل : ولكنني اعلم ان الانكليز نتاج السلتيين والرومانيين والانجليز والسكسونيين والدانين والنورمنديين غرنت : على ان اكثر هؤلاء الشعوب من الاصل الشمالي . فهم من سلالة واحدة رتزل : هل لي ، ايها السادة ، ان اقتحم البحث ؟ فقد درست المسألة باعتهاء ، فتوصلت الى الحكم بان كل هذه الشعوب الاوربية فروع اصل واحد جاء من الشرق ، وكان سابقاً كالايبين ، ولكنه لما انتشر شمالاً وجنوباً تطور . فصارت منه نماذج منوعة كالتورديين ، وشعب البحر المتوسط ، لاختلاف الاحوال الجغرافية والاقتصادية فاختلاف السلائل نشأ عن اختلاف احوال البيئة . والعامل الانثروبولوجي قلما يصح ان يدعى عنصراً حاسماً في التاريخ . فالشماليون يقتبسون صفات الجنوبيين متى اقاموا بينهم ، وسكنوا المناطق الاستوائية فيميل الجيليون الى طول القامة في كل قطر مع صرف النظر عن سلالة . وقد لاحظ الباحثون ان الالمانيين الذين سكنوا البرازيل طويلاً فقدوا قوتهم الشمالية . وهم كالانكليز في جنوب افريقية ، يجلس واحد منهم تحت تينته ويستأجر عبيداً ليعملوا عمله . فالواصف الجنسية ترجع في الاساس الى البيئة الجغرافية

حنا خباز

مترجمة بتصرف قليل

البيئة الجغرافية